مكابدات صوت فلسطين

محمود أبو الهيجاء *

أنا من الجيل الثالث في هذا الصوت/ المسيرة، «G3»، إذا ما شئتم، طالما نحن اليوم في عصر العولمة ومصطلحات الثقافة. .

وكوني من الجيل الثالث فهذا يعني تنوّع التحديات التي واجهناها وتعددها. . والتي كان أصعبها وأكثرها تحريضاً التماهي مع الروّاد والوصول بالعمل الإذاعي إلى مستوى البطولة والرضى الوطني، ذلك لأنّ تقديماً وتوصيفاً له علاقة، بالدرجة الأولى والأساس، بالمهام الوطنية والنضال الثوري، بل المهنية، هو الذي كان يهيمن على عمل الإعلام والإذاعة. .

وحتى هذا العمل، بالرغم من كونه عملاً نضالياً، ظلّ وفقاً لذلك التقييم ضئيلاً، بالقياس مع الكفاح المسلّح الذي كان يعني العطاء والطهر كلّه والقداسة، معاً.

أقول ذلك . . لأبيّن على نحو أركيولوجي مستوىً من الوعي شكّل فيما بعد مفهوماً خاصاً للعمل الإعلامي والإذاعي، وحين وصل هذا المستوى إلى درجة المفهوم «Concept»، كان يشكّل مدرسته الوطنية، إنْ صحّ التعبير.

وحين ذاك صارت النظرة إلى الموضوع المهني أساسية وتحظى باحترام أكبر، فيما كانت في البدايات مجرد نظرة عابرة. وأعتقد أنَّ هذا هو ما حكم التجربة الإعلامية الوطنية كلّها منذ بداياتها بدلالة الشعار الذي ساد حينذاك «بالدم نكتب لفلسطين». على أنّ هذا لا يعني أنّ البدايات لم تنضوِ على كادر عملاق من الناحية المهنية . . فعدا الموهبة كانت الدوافع الوطنية تصقل هذه الناحية بشكل عميق.

وعلى أية حال . . فإن هذا في رأيي ما يستحق بحثاً أوسع وأشمل . . وما قلته من عناوين في هذا الصدد، كان ما عشته وأحسسته وأدركته في تلك الأيام التي بدأت فيها عملي في الإذاعة، خصوصاً بعد ما تسلّمت مسؤوليتها من زميلي وأخي يوسف حسن (القزّار تالياً) .

على أن تجربتي في الإذاعة لم تكن هي الأولى في الإعلام . . فأنا في مكتب الإعلام الحركي منذ العام 1972 ، والإعلام الموحّد بعد ذلك ، من العام 1973 وحتى العام 1976 .

ولعلّ هذا هو أحد المقاييس المهنية القليلة التي جاءت بي إلى الإذاعة ، وغير ذلك فإنّ الكادر الذي عمل مع الزميل يوسف ، ومن ثم معي وحتى لحظة إغلاق المحطّة في بغداد العام 1994 – بطلب منا – كان كادراً جاء من التنظيم . . وليس من المهنة .

بهذا المعنى ، تبدو الصعوبات واضحة ، لكن الصوت كان يصل . .

ومع أنّ النظرة إلى الجانب المهني ، كما قلت ، لم تكن هي الأساس ، إلا أن هذا الجانب كان مبعث اهتمام وقلق للكادر المسؤول في المنظمة – وهنا أتحدّث عن حالة محدّدة بهذا الشأن .

فبعد أن قرّر الأخ يوسف القزّاز مغادرة بغداد والذهاب إلى قبرص ، كان الأخ عزّام الأحمد ، مدير مكتب المنظمة ومسؤول الساحة في العراق حينذاك ، بالغ القلق على الإذاعة وعلى سير العمل فيها ، وهل سنستطيع ، نحن كادر بغداد ، إدارة الإذاعة ، وإطلاق صوتها بعد أن تغادر هذه الكفاءة المهنية إلى قبرص .

– طبعاً ، أعتقد أنّ هذا سيفرح أخي يوسف بعد هذا التأنيث ! –

سألني الأخ عزام بعد أن استدعاني على عجل : إذا غادر يوسف غداً إلى قبرص ، فهل بوسعك أن تدير الإذاعة كما هي الآن . .

ابتسمت بهدوء . .

ومن لا يعرفني جيداً . . لقال : إنّها ابتسامة الغرور ، فيما كانت هي علامة قبول التحدي . . ومع ذلك ، أعترف أنه كانت لديّ في تلك الأيام – العظيمة – ثقة المالك لأدواته إلى حدّ مقلق .

على أيّةَ حال ، أجبت بعد الابتسامة بنعم وسيكون الأمر يسيراً إن شاء الله .

قال عزّام : إذاً ، أنت من الغد مسؤول الإذاعة .

ومن الغدّ ، بدأت التجربة تختلف وتذهبُ إلى مستوىً آخر .

فمن موقع المسؤول ، تبدو الرومانسية موقفاً برجوازياً ، فيما الديمقراطية عمل قد ينطوي على مؤامرة ، ومن موقع المسؤول يُصبح للكلمات ميزانها الذي يعادل ، أحياناً ، ميزان الذهب ، وهذا ما يوقع غالباً في انتقائية فجّة . . غير أن حاجاتنا التعبوية ومرحلة الكفاح المسلح كانت تغطّي انتقائيتنا بمشروعية عالية . .

وتطوّرت التجربة في خضم العمل والاتصال المباشر مع مراكز القرار السياسي ، والاطّلاع عن كثب على آليات العمل الوطني بصورة تفصيلية إلى حدّ كبير . . كانت المفاهيم . . وبالتاليً الأساليب خاصتنا ، تتقدم نحو الاعتراف العملي بأهمية التجديد والتعددية في الأصوات والمواقف وضرورتهما ، لكن ، ودائماً ، على قاعدة الالتزام بالمشروع الوطني والمعبّر عنه بـ(م . ت . ف) ، ومع ذلك ، مع هذا الاعتراف والتطور ، ظَلّ خطابنا خطاباً تعبوياً ، ولم يكن هذا خطأً في تلك الأيّام .

لكن ، ورغم تعبويتنا العالية ، كنّا مختلفين عن إذاعة

بغداد الشقيقة التي لا بدّ أن أذكر هنا، ليس من باب الوفاء فقط، وإنّما من باب العرفان أيضاً، الدعم الكبير الذي وفرّته لنا في كل شيء تقريباً.

وبالطبع استناداً إلى موقف قوميّ أصيل طالما تمسّك به العراق، ولا يزال، تجاه فلسطين وشعبها وقضيتها وقيادتها في (م. ت. ف) بقيادة الأخ أبو عمار، وأشدّد على ذلك لما له من دلالة سياسية مهمة . .

أعود وأوضّح أنه بالرغم من أسلوبنا وصوتنا التعبوي كنّا نختلف عن الإذاعة العراقية، فمستوى الرقابة لدينا مثلاً كان دون الصفر، لا، بل إننا كثيراً ما تصدينا لمواقف وأحداث مفصلية في ساحتنا دون توجيهات من أحد، اللّهم إلاّ بعض توجيهات عزّام الأحمد بوصفه مسؤول الساحة، والذي كنّا نعتبره أحد العاملين في الإذاعة ولم تكن توجيهات الأخ عزام ومتابعاته، غالباً، غير توجيهات ومتابعات اطمئنانية، إن صحّ التعبير، . .

هذا يعني أن الإعلام الوطني تحديداً بحاجة، دائماً، إلى منتمين، لا إلى موظّفين، وما زلنا بحاجة إلى ذلك طالما نحن في مرحلة التحرّر الوطني ولم نعلن دولتنا بعد.

لا أعرف، هل قدّمت استخلاصات صحيحة ومجدية عن تلك التجربة الثرّة، التي لم أتطرق إلى جانبها الإنساني والتفصيلي اليومي، ومعاناة البحث اللائب عن التعابير الصحيحة والأغنية المناسبة . .

وكان سؤال اليوم بالنسبة إلي: ماذا سأكتب اليوم؟ . . أي القضايا سأعالج؟ كيف نكون موضوعيين وواقعيين وتعبويين في الوقت ذاته؟ كيف أُعطي التعليق السياسي محتوىً ثقافياً؟ وكيف قبل كلّ ذلك، أدير هذه المجموعة الطيّبة من شباب الإذاعة، وأظلّ على اتصال حميم معهم، لكن دون رخاوة، وهذه «الدون رخاوة» غالباً ما فُسرّت تفسيرات خاطئة، ولم أَكن لأحمل ضغينة تجاه أحد نتيجة ذلك.

وفي الجانب الأكثر خصوصية، كنت في عملي الإذاعي، أعاني من ضياع القصيدة، حتى أنني كدتُ أنساها، لكن حاجة الروح كانت تدفعني إلى مداعبة الكلمات على نحو حسّي، الأمر الذي جعلها بعيدة عن العمل الإذاعي المشغول، تماماً، بالقضية، ولا مجال للوجع الشخصي بتعابيره الحسيّة هنا . . في هذه القداسة الوطنية!.

* مستشار هيئة الإذاعة والتلفزيون في رام الله.

19 .. حيفا .. درب (الشلاليط)!

يوسف الشايب *

ألقى قلمه مكسور الأطراف بعيداً عن تلك الورقة الفارغة إلا من سطر واحد . . غرق في هالة من الصمت بلون ذيل غراب . . كان يحب ذلك، لكن المرايا تفرض عليه اليوم لغة برمائية لم يألفها من قبل . .

ثمة شيء غير مألوف اليوم . . هناك أمر ما يجعله غير قادر على مقاومة العتمة، والنوم . .

نعم، تذكر الآن خبر سقوط الشهيد التاسع عشر . . كان الخبر بمثابة محاولة لقلب نظام الحكم داخله، وتلوين كل المساحات البيضاء داخله بلون اعتاد أن يراه في عيد العشاق، وليس في جبهة القتال، التي لا يعرف ماهيتها، ولايدرك أبعادها الطازجة، وحكاياتها الزرقاء بعد.

إن علاقته بهذا الرقم (19) هي علاقة خاصة، دائماً . . هو نفسه لا يدرك سبب ذلك، خصوصاً أنه ليست هناك أي ذكريات خاصة تتمحور حول هذا (التابو) . . لذا لم يكن لينتفض، كما لو سكنته عفاريت «أورشليم»، حين سماعه خبر سقوط الشهيد الثامن عشر أو العشرين أو حتى المائة، إلاّ أنّ الأمر مختلف مع الشهيد التاسع العشر، الذي بات لا يتذكر اسمه الآن . . نعم، الأمر مختلف مع هذا (التابو).

تظاهرات غير سلمية في الجهة اليمنى من الذاكرة، وفي الجهة اليسرى هدوء دبلوماسي وعسكري غير مبرر، الأمر الذي سبب له حالة من الهذيان، بدأ معها يسترجع صوراً ربما لم يشاهدها بنفسه، وربما شاهد بعضها بالأبيض والأسود . .

كانت عملية النبش في الذاكرة ستستغرق طويلاً، لولا احتضار القلم بين أطراف أصابعه، واقتراب ذاك الطائر الأرعن منه كثيراً . . كان يخشاه ومازال، هو يعشق الحياة، ويرفض أن يصبح مجرد ذكرى قد لا تحتل الجانب الأيمن أو الأيسر من مخيلة أي شخص، إلا إذا ما صعقوا بـ(تابو) مثل هذا . . تذكّر حديث جدّه عن حيفا، تلك التي شهدت قصة عشق غريبة في الثلاثينيات من القرن الماضي، بين مطلقة في أوائل الثلاثينيات من العمر، هي جدته، وشاب

وسيم في المنتصف الثاني من العشرينيات هو جده . . حلّق بعيداً إلى حيث تطهو تلك العجوز ضوء النهار . . وتصنع المستحيل في قدرتها الصغيرة جداً .
قال بصوت يكاد لا يسمعه ، هو بنفسه : «ما كنت لأكون لولا حيفا ، لولا قصة العشق الغريبة تلك» . .
لم يكن من حيفا ، لكنه عشقها . . لم تكن يافعة أو فائقة الجمال . . لكنه أحبها . . قبل خمسة وعشرين رغيفاً ودع عشيقته ، وقبل ذلك ودّع حيفا . . كان يقول : «لا نعرف قيمة الأشياء إلا بعد زوالها» . . كان يبكي كلما تذكر حيفا ، كما أبكي كلّما تذكرته .
بعيداً عن قصة جده ، وحكايات الأرغفة غير الطازجة ، كانت له حكاية غريبة مع حيفا ، تلك التي وطئها مرتين في حياته ، فبعيد كل زيارة يشعل الشعب الفلسطيني انتفاضة عارمة . . وكأن وجوده ذا شجون في حيفا يربك المنطقة بأسرها ، ويزجّها في أمور لم يكن الكثير يتوقعها .
أول مرة تداعب فيها عيناه وذاكرته حيفا كانت العام 1987 ، وبالتحديد في أيلول . . كان رفقة جده ، الذي بدا الأسى عليه واضحاً عندما كان يشير إلى ما تبقى من الأماكن التي يعرفها جيداً . . كان يحاول المزج بين فلسفة لا يدركها غيره وجدران كثيراً ما اختزنت رائحته ، وبعض الساعات التي ما انفك يعشقها . . صمت كثيراً . . ثمة شيء ما يثير قلق هذا الجد . . لم تعد حيفا كما كانت . . إلاّ أن رائحة عشيقته الراحلة ما زالت تداعب المكان . .
كانت الزيارة قصيرة ، لكنها عميقة كرائحة الملح في موج قميصه ، وأزرار البحر . . بعد ثلاثة أشهر كانت الانتفاضة الأولى . . إلا أنه وجده ، لم يكونا في البلاد ، إلا أن البلاد كانت تسكنهما .
الزيارة الثانية لحيفا كانت في أيلول ، أيضاً ، ولكن في العام 2000 ، وقبل عشرة أيام تقريباً من اندلاع انتفاضة الأقصى (لأيلول هذا حكايات غريبة حقاً مع الفلسطينيين . . .) . . لم يكن جده معه ولا والده كما في الزيارة الأولى . . إلا أنه ما زال يحمل الكثير من الحكايات التي ورثها عن كبار السن الذين ما زالت بيوت حيفا القديمة تحفظ تفاصيلهم بدقة .
تحت تأثير مخدر الهذيان ذاته ينتقل ، وبالصورة «الهمجية» نفسها ، إلى نابلس العام 1967 ، حيث والدته وأسرتها . . تحدث البعض عن التباس الأمر عليهم . . فصحن الكنافة شمس ، وقرص الجبنة ثوب زفاف . . بعض أهل نابلس هتفوا بحماسة كبيرة لصالح الجيش الإسرائيلي ! . . كانوا يعتقدونهم عرباً . . !
ثمة هواجس كثيرة عند الرغبة في النصر .
وعندما بدأ الإسرائيليون باقتحام المكان ، مردّدين عبر مكبرات الصوت أنهم لن يتسببوا بالأذى لكل من يرفع علماً أبيضَ . . لم تجد أم إحسان علماً أبيضَ ، فما كان منها إلا أن رفعت سروالها الداخلي !
ثمة دلالات كثيرة للون الأبيض . . إلا أنني لا أحبّه فهو لون مسالم ، مثلي . . غريب هذا اللون ، فالعروس عندما ترتديه لا تملك خيارات إلا الانصياع لرغبات عريسها ، والقائد الجديد ، والميت بطبيعة الحال ، لن يكون له الخيار ، فاللون الأبيض يلفه من «ساسه إلى راسه» . . كنا ونحن صغار نرتدي قميصاً أبيضَ في مدارسنا ، ربما كعلامة على الانصياع . . والخنوع .
حاولت ذاكرته ، عبثاً ، البحث عن حكايات صنعها

بنفسه، فلم تجد إلا شجر الخوخ والمشمش والرمان الذي كان يداعبه بفيه كل عام في الإجازة الصيفية، ودموعه الطفولية في كل مرة كان يغادر فيها أرض القرية . . لم يكن «بطلاً» ذات يوم، فكل ما يحلم به إجازة صيفية أخرى في قريته الحلم.

. . . وفي العام 1992 عاد ليحلم بقريته . . بعد أن أجبر على الحلم بالجثث المتعفنة والكراهية وبطائر الموت الأحمق، طوال عام قضاه تحت جناح الخيبة، إبّان حرب الخليج الثانية، تلك الحرب التي تعلم هذا المراهق، من خلالها، أول مبادئ السياسة: «لا يوجد صديق دائم . . المصالح المتغيرة تحكم الأمور في أغلب الأحيان».

قام بزيارة مكوكية رفقة شقيقه إلى مكتب هويات نابلس لاستصدار اثنتين لهما . . كان الجندي يهدي كل داخل إلى المبنى (شلوطاً) . . اعتقد حينها أنه سيضرب للمرة الأولى من جندي إسرائيلي . . كان يتمنى بسذاجته حينها أن ينال هذا الشرف، فهو لا يقل وطنية عمن يضربون، كما كان يعتقد !

كان شقيقه يسبقه . . حظي شقيقه بشرف (الشلوط) . . عندها كان فخوراً بمؤخرة شقيقه، وكان يعدّ مؤخرته لهذا الشرف، إلا أن شيئاً من ذلك لم يتحقق . . فالقميص الوردي الذي كان يرتديه لفت انتباه الجندي، الذي أبدى إعجابه بهذا القميص اللعين، متناسياً واجبه في ركل (الشلاليط) . . خرج مكتئباً من مبنى الهويات، فهو لم يحظ بهذا (الشلوط)، الذي كان يرى فيه دليلاً على فلسطينيته وشعوره الوطني !

بعد ستة أقمار . . اختار الطريق الصعب، وقرّر الاستقرار في تلك القرية الحلم، عمل في الصحافة، كان يهوى مزيج الحبر والياسمين . . ذلك الذي عرفه جيداً بعدما أحب فتاة سمراء ريفية . . تزوجها . . واستقر في رام الله، مع الحفاظ على الزيارات المتكررة إلى منزل جده . . هناك.

مشوار بما لا يحتاج كل هذه الأضواء الخافتة، فمنذ أيلول الماضي، بدأ يعيش فلسطينيته بكل ما تحمل الكلمة من معان . . صحيح أنه قبل أعوام لم يحصل على (الشلّوط)، لكنه في فترة قصيرة حصل على مليون (شلوط) . . حصل على مليون تأشيرة تدخله عالم الوطنية، فهو «يتمرمر» مثل غيره من الفلسطينيين، يعاني الحصار والحواجز والقصف وصعوبة التنقل مثلهم، يضع روحه على كفه مثلهم . . يتألم مثلهم، ويحلم مثلهم كذلك.

بدأ يصحو من هذيانه، دقق في العبارة الوحيدة المكتوبة على سطح الورقة غير الملساء . . «شخبط» عليها بعنف . . حاول الكتابة مجدّداً . . لم ينجح . . لربما ما زال يحتاج إلى (شلوط) آخر كي يستفيق ! .

---

* شاعر فلسطيني يقيم في رام الله.